البدع والخرافات

وأتباع التقاليد والعادات

﴿ حادثة دمياط في طي الارض . تقبيل اعتاب القبور . صناديق النذور ﴾

يقال ان مسلمي مصر يتحركون الى الترقي المدني الذي تمتاز به الأمم ويتهمهم الأفرنج بأنهم يحاولون ان يجعلوا ترقيهم اسلاميا يمتزج فيه الدين بالمدنية والسياسة ولو كانت هذه التهمة الشريفة صحيحة لكنا نرى مبدأ هذه الحركة من الأزهر وما على شاكلته من المدارس الدينية ولكنا نرى بين طلاب المدنية من طريق علوم الدنيا وبين رجال الدين صلة واتفاقا على الغاية التي يلتقي فيها الفريقان في آخر السير متحدين على انهاض الأمة واعزاز الملة . ونحن لا نرى بينهما الا التباين التام وفقد الثقة والتدابر على خط مستقيم . ونرى أن أهل الدنيا أقوى في ذلك من أهل الآخرة فهم يجتذبونهم ولا ينجذبون اليهم فلا نرى أحدا ممن ارتقى بالعلوم الدنيوية يربي ولده تربية أزهرية ولكن أكابر علماء الأزهر قد يربون أولادهم في المدارس الدنيوية حتى مدارس الحقوق التي يكون المتعلمون فيها قضاة يحكمون بالقوانين من دون الشريعة وقد سمعت بأذني بعض هؤلاء العلماء يقول بكفر قضاة المحاكم الاهلية لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله ثم هو يحاول جعل ولده واحدا منهم أو محاميا حكمه في نظره حكمهم . ولو سألت السواد الاعظم من المتخرجين في المدارس الدنيوية العالية هل يرضون ان يكون شيوخ الأزهر وامثالهم قضاة المحاكم المدنية والجنائية وحكاما للسياسة والادارة لقالوا لك ان البلاد تستغيث من أحكامهم في الامور الشخصية فكيف تستقيم الأمة حال اذا هم حكموا في غيرها لا سيما في الامور المالية على اختلاف فروعها الآن والسياسية على وعورة مسالكها والتواء طرقها

وكأن يرجى تلافي هذا التقاطع من رجال الدين لكنهم واقفون في المضيق الذي كان فيه اشياخهم واشياخ اشياخهم والأمة متحركة بطبيعة العصر فلا هم يسيرون معها ولا هم يستطيعون ايقافها معهم ولا هم يساعدون طلاب الاصلاح على الجمع بين الدين

وما لا بد منه لسلامة الملة والأمة كاستقلال الفكر ، وتحصيل علوم العصر ،

انك لتحدث أهل الرأي والفكر من الطبقات المختلفة في شأن الاسلام والمسلمين فلا تكاد ترى أحدا يرجو ان يجيء يوم يحكم المسلمون فيه بشريعتهم وهم في حال راقية عزيزة فيفكر في ذلك ويسعى له سعيه . أليس هذا هو البلاء المبين ؟ بلى وان وراءه لبلاء أكبر منه وهو نفور بعض الذين يتلقون العلوم العصرية من عقائد الدين واعتقادهم انها لا تتفق مع العقل ولا يلتئم مع استقلال الفكر ولا نجاح لامة لا تعطي العقل حقه من الحرية وتبلغ الفكر مداه من الاستقلال . وكان يرجى تلافي هذا من العلماء أيضا بأن يجاهروا بمقاومة البدع والخرافات

كنا ننتظر من الاستاذ الاكبر الشيخ حسونه النواوي حركة اصلاح جديدة في مقاومة البدع أقوى من الحركة التي كانت في مشيخته الأولى فما زادته الايام الا حنكة واختبارا ولكن حادثة دمياط جاءت بنقيض ما كان ينتظر أو يرجى فقد كانت هذه المسألة فرصة لاحياء سنة أو سنن واماتة بدعة بل بدع كثيرة لامتداد الاعناق وإصاخة الاسماع وتشوف النفوس الى ما يقوله شيخ الأزهر فيما عليه العامة من الافتتان بالمجاذيب وقبور الصالحين

دعي الشيخ حسن علي أحد علماء دمياط الى قراءة قصة المولد في أحد المساجد فسمع الناس منه مالم يعتادوا . سمعوا منه قصة ليس فيها شيء من الروايات الموضوعة ، والاكاذيب المصنوعة ، مفتتحة بقوله تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) فسروا بما سمعوا وانشرحت صدورهم . وكان مما ذكر في القصة خبر الهجرة الشريفة وفيه انه صلى الله عليه وسلم قطع المسافة بين مكة والمدينة في مثل المسافة التي يقطعها بها الناس فسأله بعد ذلك سائل لماذا لم يقطعها في لحظة كما يفعل أهل الخطوة من الاولياء ؟ فأجاب بأن مسألة الخطوة غير ثابتة ولو ثبتت لكان النبي صلى الله عليه وسلم أجدر لا سيما في ذلك الوقت الذي خرج فيه مع صاحبه عليه الرضوان مستخفيين من قريش خوف اذاهم ولكانت آية يهتدي بها خلق كثير . ويقال انه سئل عن البقعة التي فيها قبر النبي

صلى الله عليه وسلم هل هي من أرض الدنيا أم من الجنة فأجاب بأنها من أرض الدنيا ولا أدري هل فسر لهم حديث الشيخين في ذلك أم لا . وسئل عن النقود التي تلقى في الصناديق التي توضع عند أضرحة المشايخ والاولياء في المساجد فأجاب بأن هذا العمل غير مشروع وان الصدقة على البائسين والمنكوبين كأهالي المطرية الذين احترقت بلدهم في هذا العام والبذل في الأعمال العامة كإنشاء المدارس أولى وأفضل وسئل عن تقبيل أعتاب حجرات قبور الصالحين فقال انه غير مشروع بل هو بدعة

ساءت هذه المسألة الأخيرة شيخ الصندوق في ذلك المسجد من دمياط فأوعز الى خطيب من خطباء الفتنة بأن يعرض بتضليل الشيخ حسن علي ودعوس الى كثير من العوام بأن الرجل أنكر الكرامات وأهان الأولياء فقامت قيامة الغوغاء عليه فنمي الأمر الى شيخ الأزهر فأمر شيخ علماء دمياط بالتحقيق فأظهر هذا الشيخ وأعوانه من التحامل على الشيخ حسن ما أظهروا حتى انه كان يقبل شهادة الطاعنين فيه ولا يسمع شهادة المدافعين عنه (كما قيل) . ولما علمت العامة بتحامل العلماء عليه هاجت هياجاً شديداً حتى حاولت الفتك به غير مرة وصارت ترجمه بالحجارة أو الطوب اذا خرج وترجم البيت الذي هو فيه اذا لم يخرج . ثم رفع الأمر الى مشيخة الأزهر فعقد الشيخ حسونه مجلس الادارة للنظر في ذلك وبعد النظر حكم بمنع الشيخ حسن علي من التدريس مدة سنة كاملة وبقطع مرتبه من التدريس في هذه المدة . هذا ما سمع وشاع

قيل ان الحكم اداري سببه اساءة الشيخ حسن علي الى شيخ العلماء في بلده عند التحقيق وهو قول معقول اذ لو كان أخطأ في بعض المسائل الدينية لحكم عليه بعد بيان غلطه له واقناعه بالصواب ان يعترف بالخطأ السابق ويقرر الصواب في دروسه على رؤوس الأشهاد . ولكن العامة فهمت انه عوقب على انكاره ما يسمونه الخطوة أو ملي الأرض للصالحين وتقبيل أعتاب الحجرات التي تبنى فيها قبورهم ونحو ذلك من البدع وربما قالوا ان الأولياء تصرفوا فيه وهذا ما كنا نرجو ان يتلافاه الشيخ حسونه لأن هذه الحادثة أحسن فرصة لنصر السنة ومحو البدع

بأن يظهر الحق للملأ على ألسنة الجرائد

الحق في هذه المسائل من البديهيات التي لا ينقطع فيها عذران — اما مسألة طي الأرض وقطع المسافات الطويلة في دقيقة أو دقائق قليلة فلم يأت بوجوب الايمان بها كتاب ولا سنة ولم يقل بها أحد من الأئمة المجتهدين بل لم يكن يخطر هذا ببال السلف ولما حدث القول بذلك في الخلف استنكره بعض الفقهاء حتى قال بعضهم بأن من يعتقد جواز ذلك يكفر ويخرج من الاسلام أو يحكم بجهالته وغباوته كما صرح بذلك صاحب الوهبانية من فقهاء الحنفية بقوله فيها

ومن لولي قال طي مسافة　　يجوز جهول ثم بعض يكفر

ولا شك ان الناظم كان يعتقد أحد الوجهين اللذين حكاهما من العلماء فليكن الشيخ حسن مثله ومثل من نقل عنهم . وهذا قولهم فيمن قال بالجواز فما بالك بمن يقول ان ذلك واقع بالفعل . وهب ان هذا وقع كرامة فهل يكلف من لم يثبت ذلك عنده ولم يشاهده ان يجعله عقيدة دينية له ؟ أي دين يتسع لهذا . أيتسع له دين الاسلام الذي قرر كتابه ان لله في الخليقة سننا لا تتبدل ولا تتحول وان لا حكم في الدين الا لله وما أنزل الله بهذا من سلطان

وأما مسألة تقبيل الأعتاب فهي بدعة لا سند لها من كتاب ولا سنة ولا قول إمام مجتهد وكيف وقد قال الفقهاء في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ليس من السنة ان يمس المنبر ولا أن يقبله بل يقف من بعد ويسلم

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تشييد القبور وتشريفها وعن الكتابة عليها وعن ايقاد السرج عليها وعن اتخاذ المساجد عليها ولعن من يفعل هذا . ومضى الصحابة والتابعون على هذه السنة فلم يبنوا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصلوا اليه ولا بنوا قبرا لأحد من المهاجرين والانصار . ولما حدثت بدعة بناء القبور كان بعض الامراء المتمسكين بالسنة يهدمها كما حكاه الامام الشافعي في الأم قال: ولم أر أحدا من الفقهاء أنكر عليهم ذلك أي هدمها : فهل صارت البدعة سنة وصار بناء القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها والصلاة اليها دينا متبعا بعد ان لعن الشارع فاعل ذلك وصار لهذه المساجد التي تبنى عليها أحكام شرعية منها ان تقبيل أعتابها مطلوب

شرعا ومنكره يعاقب ويهان ؟

وأما مسألة الروضة فالرواية فيها ضعيفة عن الشيخ حسن علي سمعتها من واحد بجملة واقتي مع ذلك أقول فيها قولا وجيزا . أقول ان العلماء قالوا في حديث الشيخين « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ان معناه ان العمل هناك بطاعة الله يكون سببا لدخول الجنة . وقيل أنها تنقل يوم القيامة الى الجنة وقال بعضهم : انه لما كان بجلوسه (صلى الله عليه وسلم) وجلوس الناس اليه يتعلمون القرآن والدين والايمان هناك شبه ذلك الموضع بالروضة لكرم ما يجنى فيه وأضافه الى الجنة لانها تؤول الى الجنة : وهذا هو الصواب في تفسيره ويشهد له ما ورد في تسمية مجالس الذكر برياض الجنة كما في حديث جابر وأبي هريرة ومعاذ ولم يقل أحد ان المراد بها أن مجالس الذكر من أرض الجنة لا من أرض الدنيا

وأما مسألة الصناديق التي توضع عند الأضرحة لاستدرار أيدي الذين يظنون أن إلقاء المال في الصندوق منها سبب لقضاء صاحب الضريح لحاجة الملقي فما قاله الشيخ حسن فيها لا يستطيع أحد ان ينكره الا أولئك الاغبياء الذين يأكلون تلك الأموال بالباطل ولم يبلغنا ان الرجل نوقش في هذه المسألة فلا نبحث فيها

فعلم مما تقدم ان كل ما قاله الرجل حق لا وجه لمواخذته على شيء منه وهذا مما يقوي القول بأنه أوخذ على شيء آخر يتعلق بمعاملته لشيخ علماء دمياط ولكن الناس لم يعرفوا ذلك الشيء فظنوا ان شيخ الازهر وأعضاء مجلس ادارته ينكرون تلك الحقائق ويقولون بوجوب الايمان بملء الأرض بالعاصين بالفعل وتقبيل اعتاب المساجد التي بنيت على قبورهم ابتداعا في الدين ، وبان إلقاء المال في الصناديق عند قبورهم أفضل من الصدقة على الفقراء والمساكين ، وايغاثة المنكوبين والبائسين . والناس في هذا الظن فريقان — فريق يعلم الحق في هذه المسائل فهو يعتقد ان الشيوخ مبطلون ، والبدع والخرافات مؤيدون ، وفريق لا علم عنده فهو يقلدهم بما يظن انهم عليه . ولا ينبغي اقرار أحد من الفريقين على ظنه ظن السوء بالعلماء لذلك نقترح على الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر أن يبين للناس الحق في هذه المسائل وأنه لم يؤاخذ الشيخ حسنا خطأه فيها بل لأمر آخر وله ان يكتمه فهذا وقت يجب فيه البيان ولا يصح فيه السكوت والاستاذ في فضله وتدريه أهل لذلك